وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

# العلوم الإسلامية.. ومسالك التجديد والتفعيل *

**حوار - جواد الشقوري**

د. طه جابر العلواني

يرى الدكتور طه جابر العلواني، رئيس جامعة قرطبة بواشنطن، أن العلوم الإسلامية تشكَّلت بتأثير النص وبقوته وبما جاء الخطاب القرآني به. كما قسّم هذه العلوم إلى علومٍ لبناء الأمة والمجتمع... وعلومٍ لبناء النفسية والعقلية والشخصية الإنسانية.

وأشار في مدارسة فكرية مع موقع الرابطة المحمدية للعلماء إلى أن المعارف الإسلامية هي فكر إنساني، مؤكداً على أن بعض العلماء أخطأوا حينما أضفوا القداسة على هذه المعارف بسبب اتصالها بالنص!

وأوضح أن العلوم الإسلامية هي علوم تدين أكثر من أن تكون علوم دين. وقال: "الدين وضعٌ إلهي نجده في الكتاب الكريم وفي السنة الصحيحة الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بيانًا للاتباع وللتنزيل. لكن التدين هو أن أفسر الخطاب وأن أفهمه، وأن أقول هذا ما يعنيه الخطاب وأنا أعتقده أو أراه أو أفهمه بهذه الطريقة، وأستنبط منه كذا... فهذا وضع بشري وهذه علوم تدين".

واعتبر العلواني النظر إلى مسألة التجديد باعتبارها مهمة نخبة أو أفراد وليس مهمة أمة، من أوائل الانحرافات العقلية الخطيرة التي أثرت في مسيرتنا التاريخية كلها. وفي هذا الصدد يقول العلواني: "التجديد مهمة أمة، والأمة آثمة إذا لم تمارس دور الشهادة، والتجديد جزء من مفهوم الشهادة".

ومن بين الانحرافات الأخرى التي كان لها، في تصور العلواني، أثرٌ سلبي في تاريخ المسلمين.. حصرُ الاجتهاد بأفراد؛ حيث لم تعد الأمةُ تشعر بأن الاجتهاد فريضة وواجب أمة. وفي هذا الإطار اعتبر مسألة التوقف عن ممارسة الاجتهاد إلغاء للشهادة.

وقد أفرز هذا المنحى في التفكير والممارسة، في رأيه، ظاهرة شديدة الخطورة وهي أن العالِم لم يَعد يشعر بضرورة اللجوء إلى الدليل. ولذلك نجده يقول:" أن الأدلة الفقهية لكثير من الأئمة جاءت بعد تكوين الفقه؛ باستثناء الإمام مالك رحمه الله (وهذا يُعطيه -حقيقة- نوعا من التميز) الذي انبثق فقهه عن الحديث".

**وفيما يلي نص الحوار.**

## مركزية التجديد والمعرفة.. وولادة المعارف الإسلامية

*بداية ما هي مقاربتك لمسألة التجديد؟

- التجديد سنة من سنن الله في هذا الكون، بل إن العرب قد أطلقت على الليل والنهار "الجديدين"؛ مع أنه لو نظرنا إلى مفهوم الجدة والقدم فمن الصعب أن نجد هذا المعنى فيهما، ولكن التكرار والتعاقب والسيرورة والصيرورة... يؤدي، كما هو الثابت في سنن هذا الكون وسنن الحياة، إلى نوع من التغير. هذا التغير يقتضي باستمرار أن يُلاحَظ وأن يُرصد، فإذا برز أيُّ شيء فيه جانب سلبي أو لافت للنظر فلا بد من العمل على إعادة النظر، وإعادة الفهم، وإعادة التصور، وإعادة ضبط النِّسب، وإعادة ضبط العلاقات لكي تستمر تلك الأمور المخلوقة بأداء دورها في هذه الحياة التي جعلها الله تبارك وتعالى بهذا الشكل؛ هناك زمان ومكان وإنسان وسنن تحكم هذه المسيرة منذ بدء الخلق حتى الوصول إلى غايته التي هي أيضا خاضعة لتقديرات وسنن وقوانين.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

* هل لمحورية التجديد في المنظومة الإسلامية علاقة مكينة بالمكانة التي يحتلها البُعد المعرفي في الخطاب القرآني كما في الخطاب النبوي؟

- الذي نعرفه هو أن هذه الأمة المسلمة بدأت صلتها بالعلم بعد نزول هذا القرآن المجيد، ولذلك -لحكمة سامية- بدأ الله تبارك وتعالى بأمر بالقراءتين: (اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الانسان من علق. اقرأ وربك الاكرم. الذي علم بالقلم. علم الانسان ما لم يعلم). وتأخرت الإشارة للقلم لأن القراءة تسبق الكتابة. ونحن حين نُخلق في الطفولة نبدأ بقراءة ما حولنا وتذكّره؛ حتى إن الطفل أحيانا قد يكسر ما يُحيط به لا لرغبته في الكسر أو التحطيم، ولكن بدافع المعرفة؛ هذا الدافع الذي خلقه الله تعالى في الإنسان لمحاولة التعرف على من حوله وعلى كل شيء حوله.

ولذلك نجد أحيانا يَقدم على الطفل أحدٌ فيبتسم له، ويَقدم أحدٌ آخر فيبكي ويصرخ ويولول... فعنده نوع من الحس والمعرفة يتفتح بشكل من الأشكال... ثم يأتي دور الكتابة والقلم وما يسطرون.

فانطلقت هذه الأمة وترسخ العلم فيها، وتجاوزت جاهليتها بالقراءة. ومن هنا جاء الأمر أيضا (اقرأ باسم ربك الذي خلق)؛ قراءة الخلق، وهي القراءة الطبيعة الفطرية، التي تبدأ معنا ونحن في دور الطفولة. ولكن تنمو وتكبر لتصبح قراءة في الخلق والكون وفي الوجود بوسائل ومناهج وتتبع سنن وما إلى ذلك. ثم تأتي القراءة بالقلم وما يسطرون.

* لا شك أن إدراك العقل لأهمية القراءة والكتابة وإعمال العقل والنظر في نصوصه المرجعية كما في الكون، أفرز -أي هذا الإدراك- مجموعة من العلوم والمعارف التي نشأت في أحضان الوحي. ما هو في رأيك سياق الدوافع الذي احتضن ولادة هذه العلوم؟

- بعد نزول القرآن الكريم تفتحت قدرات العقل المسلم المؤمن، وتمَّ تجاوز مرحلة الجاهلية، وتغيرت الرؤية والنماذج في العقول، وأصبحت هناك دوافع ومتطلبات تفرض على هذا الإنسان المؤمن المسلم معرفة كل ما حوله، ومعرفة كيفية ربط هذا الذي حوله بالسنن والقوانين، وكيفية اكتشافها ثم توظيفها... وأُمر بالقراءة بالخلق، وهي كما قلنا قراءة تبدأ مع الطفولة وتنمو... وأُمر بالقراءة بالقلم. والقراءة بالخلق تأتي باسم الله الخالق، تبارك وتعالى؛ فهو الذي يُعين عليها، وهو الذي يُسدد فيها... والقراءة بالقلم تأتي بقراءة ما سَطَّرَ البشرُ من معارف وما جمعوا قبل ذلك، ولذلك حَفَلَ القرآن الكريم كثيرا بقصص النبيين، وبقصة الخلق، وسيرورة هذا الخلق، وما إلى ذلك.. من أجل أن يُلفت أنظارنا إلى أننا لم ننشأ من فراغ، وليس لنا أن نبدأ من فراغ كذلك، وإنما هناك تاريخ طويل ممتد؛ بعضُه سُطِّر بالأقلام وبعضه تَرك آثارا بارزة على وجه الأرض (قل سيروا في الارض فانظروا...) إلى غير ذلك من الآيات لكي يُفتِّح لنا المعرفة.

## العلوم والمعارف الإسلامية: الدلالة والحقول

*ما الذي تقصده بالضبط عندما تتحدث عن العلوم والمعارف الإسلامية التي ارتبطت بالخطاب القرآني والنبوي؟

- بخصوص المعارف الإسلامية التي نشأت حول الوحي نجد ابن عبد البر رحمه الله يقول: العلمُ قال اللهُ قال رسولُه. وهذا يعني أن هذه الأمة قبل أن ينزل قول الله تعالى ثم يبدأ رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ببيان هذا القول وشرحه وتنزيله على الواقع المُعاش، لم يكن لهذه الأمة علمٌ كما كان لأمم أخرى سبقت. فبدأت هذه العلوم تتشكل بتأثير النص وبقوته وبما جاء الخطاب القرآني به، وتتكوَّن وتُبنى هذه العقلية.

فكانت هناك علوم تتعلق بالباري سبحانه وتعالى ومعرفته، وتتعلق بالغيب وخلق الإنسان والغاية والهدف من وجوده... وهناك علوم ومعارف أخرى تتعلق بالتكوين الإنساني، التي تستطيع أن تُعينُ الإنسان على أن يتزكى، أو أن يهمل نفسه فيكون قد دساها... وفي الوقت نفسه هناك علوم أخرى تُعلِّم العمران...

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

ولذلك كانت لدينا علومٌ لبناء الأمة والمجتمع وما إلى ذلك، وعلومٌ لبناء النفسية والعقلية والشخصية الإنسانية.

هذه العلوم التي عُرفت بعد عصر التدوين بالعلوم الشرعية أو العلوم النقلية أو معارف الوحي أو العلوم المتَنَاقَلَة رواية أو ما أشبه ذلك... واليوم يقال لها دراسات إسلامية أو علوم إسلامية... هي المعارف التي تُعنى بمحاولة إدراك الخطاب وإدراك النص وفهمه، وإدراك مراميه ومقاصده، والكشف عن سننه، وغاياته وأهدافه، وكيفية تنزيله على الواقع المعاش... كل هذه الأمور ظهرت وتكوَّنت ونشأت حول هذا الخطاب.

من هنا عرف علماؤنا حوالي أحد عشر علما أدرجوها تحت هذا المفهوم؛ مفهوم العلوم الإسلامية أو النقلية أو الشرعية، وقسموها إلى علوم مقاصد وحددوها بخمسة هي: علم التوحيد أو العقيدة، علم التفسير، علم الحديث، علم أصول الفقه، علم الفقه. هذه العلوم سُميت بعلوم مقاصد. ثم ضمُّوا إليها سبعة أخرى سموها بعلوم الوسائل وهي: علوم العربية، نحو، صرف، بلاغة، بيان، بديع، المنطق... هذه كلها عُدّت علومَ وسائل أو علوم آلة تساعد في تكوين وبلورة العلوم الأخرى.

*هل يمكن تحديد أول علم نشأ في الإسلام؟

- يختلف الناس في أول علم نشأ؛ قيل التفسير، وقيل الفقه... والذي نعرفه من تاريخ العلوم الإسلامية أن الصحابة رضوان الله عليهم تكلموا في الفقه، وكانوا يسألون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن كثيرٍ من الأمور، وتكلموا في التفسير فكانوا يسألونه عن بعض الآيات ومعانيها وتفسيرها والمراد بها... ورووا عنه؛ فكان مثلا بعض الصحابة يأتي ليستمع لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم يذهب لينذر الآخرين، ويبين لهم ما سمعه منه عليه الصلاة والسلام، ويفتي ويقضي صلوات الله وسلامه عليه، وفي كل ذلك كانت بذور لهذه العلوم والمعارف.

من هنا نجد أن أول استعمال -تقريبا- بدأ تاريخيا لمفهوم التفسير والتأويل كان في عصر جيل التلقي، الذي هو عصر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وامتداده في عصر الشيخين، وربما ست سنوات من حي سيدنا عثمان.

ثم نجد أن لفظ الفقه بمفهومه الاصطلاحي ووصف الناس به قد بدأ بحوالي سنة أربعين للهجرة؛ فنجد هذا الوصف في طبقات ابن سعد لبعض الصحابة رضوان الله عليهم، ونجده في بعض الآثار الموجودة في تلك المرحلة، ثم نعرف أن من أوائل ما دُوّن شيءٌ من التفسير؛ تفسير ابن جريج وما جاء عن ابن عباس، وما جاء عن مجاهد، وما إلى ذلك... وكذلك ابن مسعود ومدرسته في الكوفة، والصحابة الذين انتشروا في الأمصار...

ثم وجدنا هذه المعارف في جيل الرواية يتمُّ بلورتها ووضعها في مدونات؛ فبدأت مثلا في الحديث في عهد عمر بن عبد العزيز وسبقه أبوه في هذا سنة 83 هـ؛ فجمع أحاديث وأكمل ذلك عمر بن عبد العزيز... فجُمع شيءٌ من التفسير، وجُمعت بعض الأحكام الفقهية...

فجاء عصر التدوين الذي يجعل بعضهم بدايته كتدوين رسمي - أي أن الدولة تشجع عليه والحكام يجندون العلماء للقيام به- 143 هـ كما نصَّ السيوطي والذهبي على ذلك، وقيل نستطيع أن تعتبر بداية الجمع والتدوين سنة 83 هـ إذا أخذنا بفكرة أن عبد العزيز والد عمر بدأ بجمع بعض الأحاديث في منطقة ولايته، ثم استكمل ولده عمر بن عبد العزيز ذلك.

فمنذ ذلك التاريخ، وقد أصبحت هذه العلوم علوما مدونة، استمرت في التطور في جيل الرواية ثم في جيل الفقه، وهو الجيل الثالث من أجيال الأمة لكي تصبح في القرن الرابع الهجري علوما معروفة الأبعاد ومحددة، وبينها نوعٌ من التمايز محدود، وإن كان مازال حتى تلك المرحلة بينها من العلاقات البينية الشيء الكثير.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

# العلوم والمعارف الإسلامية بين النسبية والقداسة

*هل ارتباط هذه العلوم والمعارف بالخطاب القرآني الإلهي يضفي عليها قدسية معينة؟

- هذه المعارف هي فكرٌ إنساني، وبعض العلماء، نتيجة لاتصالها بالنص، أضفى عليها خطأً قداسة النص، وعدَّها وكأنها امتداد له.

فما يحمله النص من قدسية واحترام أُضفيت على هذا الفهم البشري. والحقيقة أن هذه العلوم هي علوم تدين أكثر من أن تكون علوم دين؛ فالدين وضعٌ إلهي نجده في الكتاب الكريم، وفي السنة الصحيحة الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بيانًا للاتباع وللتنزيل. لكن التدين هو أن أفسر الخطاب وأن أفهمه، وأن أقول هذا ما يعنيه الخطاب، وأنا أعتقده أو أراه أو أفهمه بهذه الطريقة، وأستنبط منه كذا... فهذا وضع بشري وهذه العلوم هي علوم تدين.

فهذه العلوم إنسانية، وبمقتضاها يحاول الإنسان أن يتعامل مع الدين ويُحوّله إلى تدين ويُنَزله في واقع يعيشه. والفهم الإنساني لأي شيء من الأشياء يتأثر بعوامل عديدة، منها: عامل الزمن، عامل المكان، عامل الثقافة، عامل الوعي، عامل القدرات، عامل الوسائل... وبالتالي فإن الإسلام رسَّخ في وعي المسلم بأنه ينبغي دائما أن يُجددَ اللاحق ما تركَ السابق. وهذا أمر طبيعي ما كان ينبغي أن يكون موضع جدل ولا نقاش.

* إذن ما الذي جعل العلماء المتأخرين يضفون القدسية على ما أُنتج من علوم ومعارف في تراثنا؟

- هو الرغبة في الاستقالة وعدم القيام بالدور. وهو عجزٌ نجم عن تراجع العلم.

* ألم يكن الخوف على قداسة النص من أسباب التمسك بهذا التراث الذي نشأ في أحضان هذا النص؟

- النص قد تكفل الله بحفظه، والنص لو تُرك للمشايخ وطبقاتهم وسلاسلهم لضاع منذ زمن طويل!الحمد لله لا اختلاف لدينا في كتاب الله، وإن حاول بعضهم أن يجعل من القراءات نوعا من الاختلاف. لكن الحمد لله حفظ الله كتابه بنفسه (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون)، وجمعه بنفسه (لا تحرك به لسانك لتعجل به إنا علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه). ( سنقرئك فلا تنسى). (ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه).

لو ترك الله كتابه لهم لفعلوا كما فعلت بنو إسرائيل (بما استُحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء) فضيعوا كتاب الله.

هذا الكتاب حفظه منَزِّلُهُ سبحانه وتعالى والمتكلِّمُ به جلَّ شأنه.. وبذلك حفظ سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؛ لأن الكتاب تستطيع أن تستنبط منه سيرة رسول الله وسنته. لأنه كما تقول أمنا عائشة رضي الله عنها حين سُئلت عن خُلق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قالت: كان خلقه القرآن. ونقول: كانت عبادته القرآن. وكان قضاؤه القرآن. وكانت فتاواه القرآن. وكان علمه كله قرآنا وإتباعا للقرآن الكريم. ورسول الله أُمر أن يقول (قل انما أتبع ما يوحى إلي من ربي). (إنما أُمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرمها وله كل شيء وأمرت أن أكون من المسلمين. وأن أتلو القرآن فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه).

* أين هي إذن المشكلة؟

- المشكلة في فكرة "الآبائية"، حيث إن القديم والمتقدم دائما هو الأفضل. وهذا له ارتباط بإيحاءات فكرة "الآبائية"؛ فدائما الجيل الذي سبقني أحسنُ مني لأنه جيلُ أبي! وأبي هو سببُ وجودي! إذن، أين أنا من الأئمة الكبار!

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

فأفرِّط في واجبي وأتخلى عنه، وأدعي أنني بالتقليد المحض، الذي هو أخذٌ قول الغير بلا حجة... سأخرج من عهدة التكليف وأستطيع أن أبني للأمة مثل ما بنى أبي أو سلفي... فهذا أمرٌ خاطئ وإنما على كل جيل أن يقوم بواجب الوقت؛ ألا وهو استيعاب المشكلات ومواجهة التحديات والأخذ بالتجديد.

## التجديد في المعارف والعلوم الإسلامية: المعوقات والسلبيات

* برزت منذ زمن بعيد دعوات تنادي بضرورة التجديد في العلوم الإسلامية، إلا أن حال هذه العلوم بقي كما هو. كيف تفسر عدم مفعولية وفاعلية هذه الدعوات المتواترة والمتكررة؟

- هناك سلبيات ومعوقات كثيرة جدا ظهرت في تاريخنا. ومن هذه السلبيات أننا حملنا مفهوم التجديد لا على أنه مهمة أمة، وإنما مهمة نخبة أو أفراد. وهذا كان من أوائل الانحرافات العقلية الخطيرة التي أثرت في مسيرتنا التاريخية كلها.

القرآن الكريم يوضحُ بشكل جلي للغاية أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شاهد على الناس (ليكون الرسول عليكم شهيدا وتكونوا شهداء على الناس)، ويحمل مهمة التبليغ والإتباع وتعليم الكتاب والحكمة والتزكية بها وتحويلها إلى واقع يعيشه الناس... فهذه المهمة تنتقل بوفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى الأمة لتكون هي شاهدة؛ بمعنى أنها هي التي تقوم بعملية التزكية وتعليم الكتاب والحكمة والتجديد والشهادة على الناس والشهادة على نفسها وواقعها، والحضور وعدم الغياب عن هذه الحياة بأي شكلٍ من الأشكال.

فجاء من حوَّل التجديد للأفراد وليس للأمة! ومن المؤسف أن يمتدَّ علم الفقه امتدادا ويسيطر على العقل؛ لأن في مفهوم الفقه معنى التحديث، والإنسان ميالٌ بطبعه إلى التحديث... فيريد "كبسولة" تقول له هذا حلال وهذا حرام لكي لا يُتعب نفسه ولا يجتهد فيأخذ وصفة دواء، ولسان حاله: قل لي الحكم ولا تتعبني بالدليل ولا بالنظر ولا بالتفكير ولا بالمنهج، ولا كيف وصلت إلى هذا! ولذلك تجد أن الفقه نفسه قد تطور تطورات أخرى.

فمفهوم التجديد ،إذن، تحول انحرافا إلى أن يكون مهمة نخبة أو أفراد بدلا من أن يكون مهمة أمة. وهو مهمة أمة، والأمة آثمة إذا لم تمارس دور الشهادة. والتجديد جزء من مفهوم الشهادة.

* هل هناك سلبيات أو انحرافات أخرى ساهمت في تكريس مفهوم للتجديد فرَّغته من محتواه الحقيقي؟

- الانحراف الثاني حصر الاجتهاد بأفراد. ولما حُصر الاجتهاد بأفراد لم تعد الأمةُ تشعر بأن الاجتهاد فريضة وواجب أمة.

* كيف يمكن للأمة بكاملها أن تمارس الاجتهاد؟

- طبعا لن تمارس الأمة كلها الاجتهاد، ولكن ستشهده، وتشهد عليه، وتُحيط بالمجتهد بقضاياها وبأسئلتها وبمشكلاتها، وتفرضُ عليه أن يستجيب لذلك كلِّه، وتلك شهادتها. ولذلك يعجبني هنا موقف ابن حزم رحمه الله حين يقول: إن الاجتهاد واجب عيني على الإنسان المسلم. فحين قيل له وماذا عن العامي قال: على العامي أن يجتهد في اختيار من يُفتيه. وبالتالي يكون له نصيبه من الاجتهاد. فالتوقف عن ممارسة الاجتهاد إلغاء للشهادة، وإلغاء للدور الإنساني تماما. وهذا ما حدث بالنسبة لأمتنا حينما حوَّلنا عملية الاجتهاد إلى أناس كَرَّسْنَا لهم سمعة، وأحطناهم بهالة من القداسة... فتجد الألقاب التي نضفيها على بعض الأئمة ألقابا لم يُشر القرآن الكريم إلى الإذن بها، وهو الذي حصر الحمد بالله تعالى (الحمد لله)، ولكن بدأنا نحمد ونمدح من نشاء: ما رأى مثل نفسه، وحيد دهره، فريد زمانه، نسيجٌ وحده... إلى غير ذلك من ألقاب نسجناها من أجل أن نُعفيَ أنفسنا من المسؤولية، ولكي أقول لنفسي: أنا لا أبلغ هذه المرتبة، وما دمتُ لا أبلغها فأنا غير مُطالب بأن أقوم بأي دور في هذا الجانب.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

* لكن ما "العيب" إذا كان حصر الاجتهاد بأفراد يؤدي إلى التفاعل مع مشكلات الناس الفقهية والحضارية؟

- هذا السلوك أفرز ظاهرة شديدة الخطورة وهي أن العالِم لم يَعد يشعر بضرورة اللجوء إلى الدليل. فكان أهم ما يركز عليه أن يُكَوِّنَ ما يُسميه الملكة والقدرة في نفسه، فإذا أحسَّ بأنه قد مَلَكَ القدرة وصارت لديه ملكة يُمارسُ الاجتهاد بدون دليل... ولذلك فهو لا يذكر الدليل إخفاءً له ولكن لأن كثيرا من الأقوال لا دليل عليها أصلا! وهو لم يأبه بأن يجد دليلا، فإذا نازله عالمٌ آخر في مستواه.. هناكَ يبدأ بالبحث عن الدليل.

ولذلك نجد أن الأدلة الفقهية لكثير من الأئمة جاءت بعد تكوين الفقه؛ باستثناء الإمام مالك رحمه الله (وهذا يُعطيه -حقيقة- نوعا من التميز) الذي انبثق فقهه عن الحديث... فإذا قرأت الفقه الحنفي وتاريخه وتطوره تجد أن الإمام أبا حنيفة أفتى بنصف مليون مسألة في حياته. وهذا النصف مليون مسألة التي أفتى بها الإمام أبو حنيفة كثيرٌ منها كان يُفتي فيها بشكل عقلي، ويمارس الفتوى بشكل عقلي لأنه صاحب ملكة فهو أهلٌ لذلك... ولأن بيئة العراق كانت تساعد على ذلك؛ نظرا لقلة الحديث، وبسبب الضوابط التي وضعها العراقيون لقبول الحديث؛ لأن التحريف والوضع والتزييف كان شديدا... كل هذا أدى إلى ما سبق. فقوبلت سلبية بسلبية أخطر منها!

ولكي يُثبت الحنفية أن الإمام أبا حنيفة اعتمدَ في كل ما أفتى به دليلا لم يُظهره... أُلِّفَ كتاب "نصب الراية في أحاديث الهداية"، وأُلِّفت كتبٌ، بل نُسب إلى الإمام أبي حنيفة مسندٌ، وهو شرفٌ لم يَدَّعه طيلة حياته رحمه الله!

والإمام الشافعي كان يقول للإمام أحمد أنا لست من أهل هذا الشأن.. فما وجدتم فيه شيئا فأخبروني! وتجد الإمام الشافعي -باستمرار- في كتابه "الأم" وفي كتبه الأساسية يقول: حدثني الثقة، ولا يُريد به إلا الإمام أحمد بن حنبل؛ فهو تلميذه وهو الراوي الذي يروي له الحديث في الوقت نفسه.

وترى الحِجاج الفقهي الذي يسود "الأم" وأمثالها حجاجا منطقيا عقليا في الغالب، ثم يأتي الحديث سندا لذلك؛ فكأنه كان يُقرر المسألة ثم يطلب من طلابه مثل أحمد بن حنبل -خاصة- أن يَأتيه بما يُسند هذا القول!

* ما هي الانعكاسات المعرفية لهذا النوع من المنحى في التفكير؛ أقصد الاعتمادَ على الدليل فقط من أجل البرهنة على آراء قَبلية معينة؟

- من هذه الانعكاسات بروزُ ظاهرة نستطيع أن نُطلق عليها "ظاهرة الاستدلال بالكتاب والسنة عند الأصوليين والمحدثين". حيث نجد أنه هناك كثيرا من الأحاديث الضعيفة في علم أصول الفقه استند الأصوليون إليها؛ لا لأنهم يجهلون ضرورة الاستناد في الشرع إلى الحاكم سبحانه وتعالى، وإنما لأن الاعتماد على الملَكة التي تكوّنت إسلاميا في بيئة إسلامية جعلت عُرْفَ الإنسان -إسلاميا- أنه يستطيع أن يُفتي وهو مطمئن لذلك. وقد روى بعض العلماء روايات كثيرة -حتى عن بعض الصحابة- أن بعض الأئمة حينما لا يجد الدليل فيفتي من يستفتيه، وبعد أن يُفتيه قد يجد الدليل؛ فإما أن يرجع عما أفتى به إذا لم يعززه ذلك الدليل، وإما ألا يرجع... فهذه قصص منتشرة جدا في تراثنا.

* هل ترى أنه من أولى أولويات التجديد في العلوم الإسلامية إعادة النظر في هذه الظاهرة؟

- عملية التجديد والنظر المستمر في هذه الظاهرة أمر في غاية الأهمية، بل هو أمر ضروري، بل هو أمر عادي كذلك... ولذلك كانت هناك عندنا مراتب في الاجتهاد؛ فهناك المجتهد المطلق، وهناك المجتهد في المذهب الذي مهمته أن يأتي إلى المذهب ويجدد فيه وفي قواعده ليجعله دائما قادرا على مواجهة واستيعاب ما يستجد...

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

فتنقيح المذاهب ومراجعتها كان أمرا طبيعيا جدا في تراثنا، وأئمتنا كانوا يُراجعون آراءهم. وأنت تجد في المذهب الحنفي "الصاحبين"، وهما تلميذا أبي حنيفة وتكونوا على يديه، ولكن لا تجد اتفاقا بينهم في النصف مليون مسألة التي تناولها الإمام أبو حنيفة إلا بما هو أقلّ من عشرين؛ قالوا سبعة عشر مسألة، وقالوا ثلاثة عشر... وقالوا أقل من ذلك وقالوا أكثر... ولكن المهم هو الاتفاق على القواعد والأصول وعلى الإطار العام.

نجد مثلا مالكية بغداد يختلفون عن مالكية المغرب. فعندما كانت مالكية في بغداد وجدنا أن مدرسة القاضي عبد الوهاب وغيره مختلفة عن مدرسة مالكيي المغرب، ومختلفة عن مدرسة مالكيي ما وراء النهر.

الشافعية أيضا اختلفت مواقفهم ومذاهبهم، وكلُّ هذا ناجمٌ عن قضية إعادة النظر والمراجعة، بل أحيانا نجد أن الإمام نفسه يراجع فقهه كما حدث مثلا بالنسبة للإمام الشافعي في فقهه القديم وفقهه الجديد، وكما حدث عند مدارس الحنفية، ومدارس المالكية، ومدارس الحنابلة، ومدارس الشيعة...

* هل بالفعل توقف التجديد والاجتهاد في تاريخ المسلمين كما تشير إلى ذلك الكثير من الأدبيات الإسلامية قديما وحديثا؟

- التجديد في الفقه والأصول والعلوم... لم ينقطع إلا في فترات الجمود وانشغال الأمة بالحروب الصليبية، ثم تحالف الصليبيين والتتار... وفترة الصراعات الطويلة التي لها أسبابها في تاريخنا... كل هذه الظروف شغلت علماء الأمة عن التجديد والاجتهاد؛ فكانوا يأخذون ما تُرك، ويحاولون بَدَلَ التعامل مع القرآن الكريم باعتباره المنبع والمصدر المنشئ، والتعامل مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم باعتباره صاحبَ البيان والمسؤول عن تعليم الكتاب والحكمة وتهذيب الناس وتزكيتهم بالكتاب... بدل كل هذا تعاملوا مع الأقوال الأخرى!

وكأننا في جيل التلقي تعاملنا مع القرآن الكريم ومع سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بشكل شخصي؛ فكان رسول الله يُمثل المنهج والقرآن الكريم يُمثل الإنشاء والتنظير.

وفي جيل الرواية بدأنا نتناقل الموروثَ عن جيل التلقي. وفي "جيل الفقه" بدأنا نُنزل الفقهَ منزلة الرواية والتلقي.

فتوقفت فلسفة التلقي، وتوقفت كذلك فلسفة الرواية... وتم الأخذُ بفلسفة الفقه أو الفهم (فهم الأشخاص)، ثم توقف الأخذ بفهم الأئمة الكبار والمتقدمين الواقف على الأصول، وتم الأخذ بفقه الأجيال التي جاءت بعدهم.

## العلوم والمعارف الإسلامية: مشكلة منهج أم مشكلة تنزيل؟

* غالبا ما يقال إن المشكلة ليست في مناهج العلوم الإسلامية ولكن المشكلة تكمن في تفعيل وتنزيل هذه المناهج في الواقع المعيش. ما رأيك؟

هذه الفكرة نشرها سيد قطب رحمه الله. حيث كان يُصرُّ على أنه لا ينبغي للمسلمين أن يشغلوا أنفسهم بالتجديد ولا سواه، وإنما بالحصول على أداة التطبيق (السلطة). وإذا أخذوا السلطة يستعينون بالله على كيفية التطبيق.

بمعنى، لا تسألني عن ما هي خططك ونُظمك التي ستقوم بتطبيقها... وإنما سَلْني عن شيء واحد هو: متى تسلمني السلطة؟!!

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

وهذا نجم عن فكرة "الحاكمية الإلهية" التي سادت في مرحلة من مراحل العمل الإسلامي، والتي جعلت الكثير من الحركات الإسلامية تحصر المشكلة في السلطة. وهذا جزء من عقلية التقليد؛ لأن نفسية المقلد وطبيعة القطيع تحتاج إلى ما يلي: أعطني من يمشي أمامي أو من يفرض علي الشيء! ولأن الأمة عاشت قرونا طويلة تحت تصورات ديكتاتورية محضة فقالوا إذن السلطة هي كل شيء! فألغوا دورَ الأمة الشاهدة، وألغوا دورَ الأفراد، وألغوا ما يُسمى اليوم بالمجتمع المدني، وكان من أقوى التجارب في تاريخنا. وأصبح الكلام كله أن الإسلام يتحول إلى برنامج سياسي تتقدم به جماعة محدودة ومحصورة لتقول إن هذا هو الإسلام.

الإسلام أوسع من أن يكون برنامج سياسي لفئة أو حتى لشعب أو حتى لأمة. الإسلام أكبر من هذا، وهو برنامج لهداية البشرية كلها. هو برنامج رب العالمين مقابل برنامج الشيطان الذي قال (لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين).

فحصر الإسلام في الفكرة السياسية أو بكونه برنامجا سياسيا لأي فئة... هو جناية عليه ناجمة عن عقلية التقليد، وعن طبيعة عقلية القطيع ونفسية العبيد... لأن العبد لا يستطيع أن يتصرف بنفسه.

وقد عالج القرآن هذه العقلية في آيات سورة النحل، وضرب مثلا لنا بعبد العبد وعبد الله تبارك وتعالى. فعبد الله إنسان حر، ويستطيع أن يتصرف ويُعطي ويأخذ... وعبد العبد هو الذي يَشلُّه سيده عن التصرف، ويجعلُ كسبَهُ لسيده؛ بينما هنا السيد هو الذي يُكسبُ العبدَ ما يحتاج إليه ويمنحه كاملَ حريته في التصرف في ما كسب، وفي التصرف في نفسه وحياته وعلاقاته وما إلى ذلك... يقول الله تعالى: (ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً عَبْداً مَّمْلُوكاً لاَّ يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرّاً وَجَهْراً هَلْ يَسْتَوُونَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ. وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لاَ يَاتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَامُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ).

ويظن العبد المالك بأنه بذلك يشلُّ عبدَ العبد، ويجعله طيعا وعجينة بيده، بينما هو في هذه الحالة يصبح كَلاًّ على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير.

* يُفهم من كلامك السابق أن الأساس في أي عملية نهوض وتجديد هو بناء الإنسان والأمة. لكن ما الذي حال بين المسلمين وبين إنجاز هذا البناء؟

- لأننا لم نستطع أن نتعلم كيف نصنع الإنسان بالقرآن الكريم. ومازلنا نصر على هذا لأسباب عديدة منها أننا لا نتقن التعامل مع هذا القرآن فنجتنبه ونهجره (وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِي ٱتَّخَذُواْ هَـٰذَا ٱلْقُرْآنَ مَهْجُوراً)..

ثم إن الذين يصرون على أنه ليس بالإمكان أبدع مما كان، وأن منهج الإمام فلان لا يُعلى عليه، وأن فلانا قد أحاط بعلم الأولين والآخرين، وأن الإمام فلان لم يَرَ مِثْلَ نفسه أبدا... الذي يصر على هذا الكلام لا يعرف إلا هؤلاء، ويريد أن يكرس قيادتهم لكي يكرس قيادةَ نفسه!

وهو بهذا لا يخدم التراث ولا يكرس مرجعية تراثية، وإنما يُكرس مرجعيته الشخصية؛ لأنه يُلصق نفسه بهذا التراث ويُنصب نفسه حارسا على ما يسميه تراثا! وبالتالي يُجَيِّر كل عقلية الأمة ويُصادر مستقبلها وحاضرها...

* هل ما تفضلت به من شيوع لعقلية التقليد صاحب الأمة في كل مراحل تاريخها؟

- أعتقد أن المتقدمين كانوا أكثرَ منا حرية. الإمام الدارقطني انتقد على البخاري 120 حديثا. والإمام مسلم، وهو تلميذ الإمام البخاري، خالفه في كثير من رجاله وفي كثير مما روى. والإمام البويطي والإمام المزني كانا يخالفان الإمام الشافعي في كثير مما جاء به... ومالكية بغداد، كالقاضي عبد الوهاب، كانوا يخالفون أحيانا مالكية المغرب في أشياء كثيرة. فكل مدارسنا الفقهية كانت حرة.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

*نقلا عن موقع الرابطة المحمدية للعلماء بتصرف يسير بتاريخ 12/ 2008/5

This file was downloaded from QuranicThought.com